

تفاعل الحركة النقدية

بين المشرق والمغرب

أ.بن حمو سليمان

المركز الجامعي تمنراست

من المعروف جدا أن كثيرا من الباحثين⁽¹⁾ يرون أن الحركة الأدبية و النقدية في المغرب العربي القديم هي صورة أو تقليد للحركة النقدية والأدبية بالمشرق فإن هؤلاء، وإن كانوا ينطلقون من حقيقة تاريخية وهي حقيقة علاقة المشرق بالمغرب، إلا أنهم برؤيتهم تلك يرون الأدب و النقد المغربيين مجرد ملحق للأدب و النقد المشرقي، و انه في نظرهم أقل جودة و أكثر عمومية من الأدب المشرقي، وهذا أمر فيه إجحاف في حق و تراث منطقة المغرب العربي.

لقد ذهب بعض الباحثين المغاربة وعلى رأسهم الجابري⁽²⁾ بأن المغرب العربي بحكم موقعه الجوا استراتيجي و صلته و علاقته بجنوب أوربا (فرنسا - إسبانيا) هو منطقة ذات خصوصية حضارية، تتميز بهوية خاصة عن مثيلتها بالمشرق.

إن ثقافة المغرب العربي بحسب رأي هؤلاء ثقافة عقلانية أنتجت فلاسفة و علماء⁽³⁾ عقلانيين وعلى رأسهم ابن رشد⁽⁴⁾ (551 - 595) لذلك فإن هذه الخصوصية لابد أنها أثرت في الحركة الأدبية و النقدية المغربية، و بالتالي جعلتها أكثر تمايزا عن مثيلتها في المشرق، و يكفي في هذا الصدد أن نشير إلى النهشلي و ابن رشيقي و ابن شرف وغيرهم كشواهد على ذلك.

فإننا نؤكد خصوصية النقد و الأدب المغربيين في تلك الحقبة، لأنه يستحيل لهذه المنطقة و التي سبق لها و إن تأثرت تأثيرا مباشرا بالثقافة الرومانية و ساهمت بأسماء عديدة في الأدب الروماني كذلك في بناء الإرث المسيحي بعد ذلك، و أن تتحول بعد الفتح الإسلامي إلى منطقة استهلاك ثقافي للأدب المشرقي فحسب.

و الواقع أن التعدد اللغوي الذي عاشته المنطقة قبل الإسلام و بعده وتزايد حركة التعريب بعد تزايد الهجرات العربية نحو المنطقة أفرز حاجة إلى تعلم اللغة العربية هذه الحاجة دفعت إلى الإقبال على الأدب الشرقي كنماذج للتعلم، كل ذلك شكل الإطار العام و الأرضية الصلبة التي تم من خلالها تأثير المغاربة و المشاركة على السواء⁽⁵⁾.

إن المغاربة أقبلوا على الأدب الشرقي فأخذوا منه ما كانوا في حاجة له ثم أعادوا صياغته بما يتلاءم و خصوصيات منطقتهم الحضارية، و يكفي أن نشير إلى أن هذا التأثير تزايد في مراحل التقدم الحضاري، وخاصة أثناء الحقبة الزيرية، التي تعتبر العصر الذهبي لازدهار النقد و الأدب و الثقافة بصفة عامة بالمنطقة.

فالازدهار الثقافي و الأدبي لم يأت من فراغ و لم يؤسس من عدم، فقد قام على عوامل و ضرورات أساسية، فحسب اعتقادنا أنه تمثل في عنصرين اثنين هما :

• انفتاح المشاركة على غيرهم من الأمم .

• قابلية التواصل لدى المغاربة مع المشاركة فهذان العنصران أديا إلى بروز حركة ثقافية و نقدية كبيرة، ثم بناء إرث حضاري زاخر بين أبناء الوطن العربي الكبير، فتخربه الأجيال المتعاقبة.

فانفتاح المشاركة على الأمم المتاخمة لهم كان له فائدة جمة، فقد أثر و تأثر المشاركة في غيرهم حيث أصبح القرن الرابع الهجري قمة انتعاش الثقافة العربية الإسلامية، لأن تراث الإغريق، و الهند، و الفرس المنقول إلى اللغة العربية قد استساغه العرب في هذا العصر، و تجاوزوا مرحلة الأخذ إلى العطاء و دور النقل إلى الإبداع، فتلک الأمم لم يكن لديها الكثير لتقدمه " بعد أن نقل تراجم القرنين الثاني و الثالث للهجرة ما عندها، فحتى نهاية القرن السادس الهجري -الثالث عشر للميلاد- لم يكن لأوروبا مكان على خارطة العالم الثقافية، و لم يستجد شيء لدى الصين و الهند و الروم، و أما الفرس فكانوا جزءا لا يتجزأ من الثقافة العربية بعد أن نقل عبد الله بن المقفع و سهل ابن هارون خير ما في تراثهم السياسي و الديني⁽⁶⁾.

فلا عجب أن نجد هذا العصر قد أفرز كتابا مهما و قيما يعد من أبرز الكتب وأعظمها، و هو كتاب الفهرست لابن النديم، فهو أصدق صورة و أوضحها لثقافات تلك الشعوب و الأمم، فبقول : " هذا فهرست جميع الأمم من العرب و العجم، الموجود منها بلغة العرب و تعلمها في أصناف العلوم و أخبار مصنفاتها، و طبقات مؤلفيها و أنسابها، و تاريخ مواليدهم، و مبلغ أعمارهم، و أوقات وفاتهم، و أماكن بلدانهم، و مناقبهم، و مثالبهم منذ إثراء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا، و هو سنة سبع وسبعين و ثلاثمائة للهجرة"⁽⁷⁾ .

وفي هذا العصر، قد برزت أهم العلوم العقلية كالطب و الفلسفة، فتأثر الفلاسفة المسلمون بالفلسفة الإغريقية، و من أشهر رجال الفلسفة، بمعناها الذي آلت إليه فيما بعد الفارابي⁽⁸⁾، وإخوان الصفا⁽⁹⁾ .

وقد أثر الأدب المشرقي في الأدب الفارسي أيما تأثير بتلك المصنفات الأدبية الشهيرة التي كان لها صدى كبير "ففي مقامات حميد الدين الفارسية، للقاضي حميد الدين البلخي المتوفى (559هـ)، يسير مؤلفها على نهج بديع الزمان، والحريري كما يعترف في مقدمته الفارسية"⁽¹⁰⁾ . يضاف إلى ذلك الجنس القصصي في أدبنا القديم أيضا رسالة التوابع و الزوابع للشاعر الكاتب الأندلسي أبي عامر أحمد بن شهيد (382- 426هـ)، " و هي رحلة خيالية في عالم الجن، يحكي فيها كيف التقى بشياطين الشعراء السابقين من توابع"⁽¹¹⁾ و الزوابع"⁽¹²⁾، وتجري بينه و بينهم مناظرات و مساجلات أدبية، و كذلك بينه و بين ما يجده من مخلوقات، في عالمهم، و هو ينتصر في هذه المساجلات الأدبية دائما"⁽¹³⁾ .

وهناك أيضا مؤلف أدبي لا يقل قيمة و أهمية عن المؤلفات السابقة، وهو رسالة الغفران⁽¹⁴⁾ التي ألفها أبو العلاء المعري (ت449هـ) فهي رحلة تخيلها أبو العلاء في الجنة و في الموقف و في النار، كي يحل في عالم خياله مسائل ومشاكل ضاق بها في عالم واقعه، من العقاب والثواب و تناسخ الأرواح، و الغفران (...) مع كثير من المسائل الأدبية و اللغوية، يوردها مورد ساخر تارة، و الناقد اللغوي المتبحر تارة أخرى"⁽¹⁵⁾ .

وكذلك من أهم القصص العربية القديمة المؤثرة " قصة حي بن يقظان التي ألفها أبو علي الحسن بن عبد الله بن سينا المتوفى (970هـ) و"حي" يقصد به العقل الفعال، أو النفس الملكية المفكرة، و هذه العقل حي دائما، غير متغير، لا يهرم أبدا، و ابن

يقظان كناية عن صدوره عن القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، و الرحلة الموصوفة في الرسالة رمزية، ترمز إلى لإنسان بالعقل الفعال الذي يهديه عن طريق المنطق والفلسفة، ويفضل مصدر المعارف الذي هو النفس الملكية⁽¹⁶⁾.

إن هذه الإشارات أو إن شئنا نسميها "إشراقات"، تحمل في طياتها عوالم و تقاليد و خيالات و تصورات عن المجتمع العربي و علاقته بمن يعاشرونه و يخالطونه من الأجناس و الأمم، و قد جعلت الأدياء المشاركة يفكرون، و ينتبهون لأن تلك الإبداعات قد علمتهم كيف يحصون و يصدقون في تلك الأعمال، بنظرة نقدية صائبة قد تقوي و تخلد أعمالهم أكثر فأكثر للقاصي و الداني من الشعوب و الأمم.

فقد ظهر عندهم ما يسمى بالنقد الأدبي لحاجتهم إليه، فهو "متصل اتصالا كبيرا بجملة علوم وفنون، فهو من ناحية متصل بالإبداع أو الخلق أو الإنشاء، و النقد أقل من الإبداع، لأنه ينتظره حتى يتم فإذا تم حكم عليه النقد بالحسن أو القبح"⁽¹⁷⁾.

و هذا ما انتهجه المشاركة، فبذلك نجد أن النقد ينشط في فترة التحولات الأدبية، و يحاول أن يجتهد في تفسير الجديد أو يتعصب للقديم "حدث هذا مثلاً، عند الانتقال من الكلاسيكية إلى الرومانسية في أوروبا حيث ظهر ليسنج، و ديدرو، و وردزورث، و كولردج، و سانت بيكف و تين و ارنولد (...)⁽¹⁸⁾ و مثل هذا في القرن الرابع الهجري في الأدب و النقد "فسبب التأثير الأجنبي، و الإيمان بأن المتقدمين لم يتركوا للمتأخرين معنى لم يطرقوه، و أن الأدب بصياغته لأن المعاني مطروحة في الطريق"⁽¹⁹⁾. بسبب هذه المؤثرات كلها استعمل أدباء العصر أساليب جديدة و غالوا في العناية بالبديع و السجع و الصناعة، "و قام النقد يناقض هذه الظواهر الجديدة"⁽²⁰⁾.

فرشحت أبرز القضايا التي دار حولها النقاش و هي اللفظ و المعنى و السرقات، وعمود الشعر. و من خلال ذلك قد برزت، و بقوة أشهر حركتين نقديتين في تاريخ النقد العربي؛ دارت الأولى حول أبي تمام و البحتري و أنتجت لنا "كتاب الموازنة بين الطائيين للأمدي، و دارت الثانية حول المتنبي و عثفت في نقده، أو غالت في تمجيده مما احتاج إلى وساطة، فكان كتاب الوساطة بين المتنبي و خصومه للقاضي الجرجاني"⁽²¹⁾.

ومما زاد في ترسيخ الحركة النقدية و إعطائها دفعا قويا في توجيه النظرية الشعرية في نقد القرن الرابع الهجري، هو تلك القوى المتمثلة في أبي تمام، و المتنبي

بالإضافة إلى أرسطو "و أن يظل التمرس بالثقافة اليونانية مستمراً طوال القرن الرابع، بل أن يتعداه إلى ما بعده" (22).

فبلاط سيف الدولة كان يحفل بجو نقدي و أدبي رائع، عندما ينتقد شعر المتنبي، من ذلك أنه لما بلغ إلى قوله :

وَقَفْتُ، وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لِّوَأَقِفَ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ
تَمْرُ بَكَ الْأَبْطَالُ كَلِمَى هَزِيمَةً ووجهك وضاح، و ثغرك باسم (23)

قال سيف الدولة :

قد انتقدتهما عليك، كما انتقد على امرئ القيس قوله :

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلذِّدَةِ وَ لَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبَا ذَاتِ خُلْخَالٍ
وَ لَمْ أَسْبَأْ الزُّقَ الرُّوِي وَ لَمْ أَقْلَ لَخِيلِي كَرِي كَرَةً بَعْدَ إِجْفَالٍ (24)

فبيتاك لم يلتئم شطراهما، كما لم يلتئم شطرا بيتي امرئ القيس، و كان ينبغي له أن يقول:

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا، وَ لَمْ أَقْلَ لَخِيلِي كَرِي كَرَةً بَعْدَ إِجْفَالٍ
وَ لَمْ أَسْبَأْ الزُّقَ الرُّوِي لِلذِّدَةِ وَ لَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبَا ذَاتِ خُلْخَالٍ
وَ كَذَلِكَ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ :

وَقَفْتُ، وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لِّوَأَقِفَ ووجهك وضاح، و ثغرك باسم
تَمْرُ بَكَ الْأَبْطَالُ كَلِمَى هَزِيمَةً كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ (25)

ونجد أن هذه الملاحظات النقدية التي أثارها سيف الدولة هي عبارة عن تعليقات عابرة محدودة، تختلف عن الحركات النقدية الأخرى و تبدو أنها لم تنل من شاعرية المتنبي و لم تحط من منزلته الأدبية الرفيعة، بل حاول أن يرد برجاجة عقل و رحابة صدر دون أن يسيء إلى ولي نعمته سيف الدولة، فقال المتنبي : "إن صح الذي استدرك على امرؤ القيس هذا، و هو أعلم مني بالشعر فقد أخطأ امرؤ القيس و أخطأت أنا، ومولانا يعلم أن الثوب لا يعلمه البزاز كما يعلمه الحائك لأن البزاز يعلم جملته، و الحائك يعلم تفاصيله، وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد،

و الشجاعة في منازلة الأعداء بالسماحة في شراء الخمر للأضياف و للتضاييف بين كل من الفريقين، و كذلك لما ذكرت الموت في صدر البيت الأول أتبعته بذكر الردى في آخره ليكون أحسن تلاؤما، و لما كان وجه الجريح المنهزم عبوسا، و عينه باكية قلت :

"وجهك وضاح و ثغرك باسم" لأجمع بين الأضداد في المعنى فأعجب سيف الدولة بكلامه" (26)

و من خلال هذا الحوار النقدي الأدبي، نستشف صورة النقد والولع برعاية الأدب الذي كان سائدا في تلك الفترة، و حري بنا أيضا أن نبرز تلك الصورة المصغرة عن البيئة الأدبية و النقدية الكبيرة لدى المشاركة، و هذا ما قد يجعل غيرهم يعجب و يولع بأفكارهم و آدابهم، فلربما قد يصبح هذا الإعجاب تقليدا فيما بعد أو يصير إبداعا فيشذب ويهذب. فذلك ما حدث بالضبط مع النقد و الأدباء المغاربة، حين تطلّعوا إلى آداب المشاركة و قد اشرأت إليها أعناقهم، و تأقت إليها أنفُسهم لما تحمله من ثقافة عربية إسلامية أصيلة كانت مقصدهم ومحط إلهامهم، و تعبر عن انتمائهم الحضاري و تاريخهم المشترك. فلم يترددوا على استلهاهم تلك الآداب و الفنون، و صياغتها في قوالب جديدة و التعرف عليها أكثر "لأن الأسس التي تقوم عليها الثقافة هي المعرفة، و لكن بكل ما توحى به الكلمة من شمولية، لا تعرف حدا و لا قيда، يصل الإنسان بها إلى عالم أفضل، و يحصل كذلك على شخصية خلاقة، متى اتصل بثقافات غيره استطاع هضمها، فالثقافة تنتقل من مكان إلى مكان عن طريق الاحتكاك" (27). فقد تستضيء بثقافات سبقتها أو عاصرتها أقوى وأكثر ازدهارا منها. "فيستطيع الإنسان أن يخرج من الآفاق الضيقة في تفكيره و أعماله اقتصادية كانت أو اجتماعية أو عمرانية، و قد تصطدم بثقافات أقل منها أفقا فتقدمها بما ينقصها، فبالرحلة و بالتجارة و بالغزو يكون التبادل الفكري و الثقافي" (28).

وبذلك "ظلت الرحلة في طلب العلم مظهرا مشرفا و نبيلًا في الثقافة العربية الإسلامية، حيث ظل الناس يتبادلون الرحلة من المشرق إلى المغرب، و من المغرب إلى المشرق خصوصا، للكروع من ينابيع المعرفة و السماع من أكابر العلماء و المفكرين و مجالستهم، و مناقشتهم، فيما كان يعرض لهم من مسائل العلم، و قضايا المعرفة،

ويبدو أن تقاليد التعليم على تلك العهود كانت تؤثر السماع من أفواه العلماء على قراءة كتبهم، فكان المتعلمون، أو قل: طلاب العلم على الأصح يلتمسون مشافهة الرجال، والاتصال بهم شخصيا، وكانوا يفتخرون بذلك ويتباهون...⁽²⁹⁾، وأبرز ما يعمل هذه الحقائق، تلك الرحلة التي قام بها "بكر بن حماد الزناتي الذي كان باكر النهوض بهذه الرحلة و هو في سن السابعة عشر ربيعا. حيث ترقى إلى تبوى شهرة عربية في المشرق والمغرب والأندلس حيث تصدر للتعليم بالقيروان عام أربعة و سبعين ومائتين للهجرة، وقد ارتحل إلى الشيخ خلق كثير من أهل الأندلس وأخذوا عنه"⁽³⁰⁾.

فقد كانت للمغاربة إبداعات أدبية واسعة وثقافة علمية راسخة، وفي عهدهم تقدم الأدب تقدما محسوسا من حيث الكم، و أما من حيث الكيف "فظل يتسم بسمات المدرسة الشرقية المحافظة في معالجة الشعر من حيث الموضوعات التقليدية فهو يتناول المدح والهجاء والثناء والوصف والغزل والزهد والوعظ فتأنق الكتاب في إنشائهم شان المشاركة، فمالوا إلى السجع والتزين والتنميق وتقليب الجمل على المعنى الواحد، و لكن على غير إفساد في الذوق و بدون أن تتغلب الصناعة على الفن"⁽³¹⁾. فكان المجال الأدبي من أكثر المجالات تطلعا لما تتمخض عنه الثقافة ببلاد المشرق، إذ كثيرا ما كان يتردد في المجالس الأدبية بالقيروان، مثل نثر بن العميد وابن عباد، و بديع الزمان وشعر البحري...، والمعري.. وغيرهم "بالإضافة إلى كافة أرجاء المغرب العربي القديم، فكانت هناك رحلات معاكسة تنطلق من الشرق إلى الأندلس، لأسباب مختلفة، و قد نقل لنا المقري في كتابه "نح الطيب أسماء الوافدين من الشرق إلى الأندلس و أسماء الذين ارتحلوا من الأندلس إلى المشرق"⁽³³⁾. ومن خلا دراستنا لمصادر كتاب العمدة لابن رشيق، نجد أن الثقافة المشرقية كانت سريعة الانتقال إلى أفريقيا وبقية الأقاليم المغربي الأخرى.

و كانت هذه النهضة الثقافية ذات أثر فعال في نمو حركة النقد الأدبي، كما أن التنافس الشديد بين الأدباء في حاضرة بني الزيري قد زاد من تأججها، وزاد الأمر حدة "أن القوم كانت قد وصلتهم من خلال الثقافة المشرقية مذاهب شعرية متعددة؛ فهذا يحب طريقة بن أبي ربيعة، و ذاك يميل إلى طريقة في التشبيه تشبه طريقة ابن المعتز و ثالث ينحو منحاه جاهليا، و رابع يغرم بطلب الاستعارة"⁽³⁴⁾. و كانت الثقافة المشرقية قد نقلت إليهم طرقا متفاوتة في النقد أيضا "فعرفوا ابن قتيبة و قدامة و عبد القاهر

الجرجاني و الرماني و كثيرين غيرهم⁽³⁵⁾، وهكذا كانت جميع العوامل مسعفة على ظهور حركة نقدية في القيروان حاضرة المغرب.

هذه الثقافة بدورها قد أثمرت في جهود نقاد المغرب الأوسط أيضا في عهد الدولة الصنهاجية بعد أن مهد لبروزها الفاتحون من العرب، الذين قدموا إلى أفريقيا، "لكنهم فيما بعد سرعان ما استقلوا بشخصيتهم الأدبية، و أعادوا النظر في كثير من المفاهيم و القضايا، و اتسمت آراؤهم بالعمق والدقة والوضوح"⁽³⁶⁾.

و لا غرو أن الثقافة المشرقية، قد تركت بصماتها بشكل واضح على جميع إبداعات المغاربة الأدبية و النقدية على السواء، فبرزت بذلك طرق و مناهج نقدية قد سار على منوالها فيما بعد مجموعة من النقاد البارزين⁽³⁷⁾، و كذا ظهور بعض القضايا النقدية التي كان لها الفضل في تأسيس حركة نقدية قوية بالمنطقة و من خلال ذلك نجد أن المشرق في هذه المرحلة قد عاش عقدة الاحتواء للمغرب بسبب عدة ظروف، و بالمقابل أن المغرب قد جسد فكرة التماثل الحضاري و هذا ما أقره عبد السلام المسدي بقوله: "إن المشرق العربي قد مثل عبر تاريخنا المعين الأصل، و قد تعامل المشرق العربي مع المغرب العربي على هذا الأساس، و في المقابل و عبر التاريخ نشهد أن المغرب العربي من حيث الريادة الفكرية قد كان دائما يطمح إلى التماثل مع المشرق العربي- ولعل البحث في بعض المسميات قد يؤكد هذا الجانب فكان إذا برز قطب في المغرب العربي على مستوى الإبداع جسم تكريسه في الوعي الثقافي بتسمية ثانية تناظر بينه و بين رفيق له في المشرق. و من حيث الظواهر الثقافية ظل المشرق العربي يعيش عقدة التبني للمغرب العربي، بعض ذوي النوايا المتشنجة يسمون هذا عقدة استعلاء- و اكتفى بالقول أنه مركب التبني، و ابن خلدون كأنما تختزل حياته في الفترة الوجيزة التي قضاها في المشرق، و بالتالي يدعي المشرق أنه ابن المشرق أكثر مما هو ابن المغرب، و ابن منظور القفصي كأنما هو بالأساس برز بفضل وجوده لفترة ما في المشرق العربي"⁽³⁸⁾.

وهذا التوجه السائد كان ينطبق أيضا على الأندلس التي امتدت إليها الثقافة المشرقية و نالت الحظ الأوفر منها و الفضل في ذلك يرجع إلى المغرب، الذي كان يشكل الجسر المتين في عبور الثقافات من المشرق إلى الأندلس و من الأندلس إلى المشرق.

لقد أسهم التفاعل بين الشرق العربي ومغربه في تقوية البنية الثقافية في بلاد المغرب قاطبة و بذلك نجد "أن العرب في الأندلس يرون في المشاركة مثلهم الأعلى، يضربون على غرارهم، و ينسجون الخيوط على منوالهم، يستعيرون من دنياهم أسماء مدنها (فغرناطة دمشق واشبيلية حمص، و شريس فلسطين، و جيان قنسرين) و أسماء شعرائهم (فغالبا الأندلسي يعرف بأبي تمام، و ابن زيدون يكنى البحري و ابن هاني يلقب المتنبي). و أسماء خلفائهم (فهناك المهدي و المأمون و المعتصم و المعتضد و ساهم من الخلفاء العباسيين)"⁽³⁹⁾.

وفي اعتقادنا أن هذا التقليد هو عبارة عن منافسة حقيقية نبعت من صميم وجدان الأندلسيين، فأصبح "يستقدم من المشرق الكثيرين من الشعراء و العلماء والمغنيين و القيان، و تقوم حركة عمرانية و فكرية تنشأ معها القصور و الحدائق و الجوامع و المدائن و ترفع المدارس و المكاتب"⁽⁴⁰⁾، و قد استمر إعجابهم بالمشاركة و بكل ما هو مشرقى إلى آخر عهد المسلمين بالأندلس.

وليس المقصود هنا بالإعجاب هو عدم القدرة على الابتكار والإبداع أو السير المطلق في فلك التقليد الأعمى للمشاركة فقد "أنجبت بلادهم علماء و شعراء و أدباء وشيوخا في كل فن، فاتجهت إلى ذلك أنظارهم، و وجد من يقدر أعلامهم حق قدرهم"⁽⁴¹⁾، فقد سلكوا طريق المنافسة الشريفة إزاء المشاركة و حتى المغاربة و ذلك لإثبات الوجود، "فأسسوا ما يسمى عندهم "بالأندلسية" و التي لم تقم أبدا على فكرة الإقليمية أو الحدود الضيقة، بل ظلوا ملتفتين بأذهانهم و نفوسهم إلى المشرق يستطلعون أخباره و يتسقطون نوادره و يلحقون بركبه أنى اتجه"⁽⁴²⁾، و هذا عبد الرحمن الداخل يهفو قلبه إلى المشرق بعد أن استتب له كرسي الإمارة فيقول في نخلة:

يا نخل أنت غريبة مثلي	في الغرب نائية عن الأهل
فابكي وهل تبكي مكبسة	عجماء لم تطبع على خيل
لو أنها تبكي إذن لبكت	ماء الفرات و منبت النخل
لكنها ذهلت و أذهلني	بني العباس عن أهلي ⁽⁴³⁾

فقد وفد إلى الأندلس -عبر المغرب- كثير من المشاركة " كان لبعضهم حظ وافر من العلم و الثقافة و المقدرة على التلاؤم مع البيئة، فأثروا في ثقافة الأندلس وعاداتهم، ومهدوا لتثبيت المثل المشرقية في الفكر و الأدب و كثير من نواحي الحضارة"⁽⁴⁴⁾.

وقد ازدانت بذلك الحياة الفكرية و الثقافية في الأندلس بسبب إتيان الأندلسيين للأدب المشرقي قديمه و حديثه و لم يتوانوا في جلب بعض الكتب، و الدواوين فاستهوتهم أشعار المحدثين كأبي نواس و أبي تمام، و البحتري، و المتنبى، و صريع الغواني و أبي العتاهية و ابن المعتز و المعري، وظلوا على اتصال بالمشاركة حتى ينعث الثقافة و العلوم و استوى عودها بالأندلس و لم تنحصر الثقافة المشرقية على الأندلس فحسب، بل تعدتها إلى الأمم الأوربية المجاورة "فأفسحت صدرها للحضارة العربية و العلم العربي، و استطاعت أن تفرق بين العلم و السياسة، فبينما كانوا يحاربون المسلمين سياسيا، كانوا يفسحون صدورهم للعلماء المسلمين ثقافيا، فالتاريخ يدلنا على أن عددا من حكام قشتالة كانوا يحيطون أنفسهم بعلماء مسلمين، ويستخدمون مهندسين، ويستمعون إلى موسيقيين مسلمين"⁽⁴⁵⁾.

وإذا كان الأندلسيون قد انتفعوا بعلوم المشاركة و ثقافتهم؛ فقد كانت لهم الجرة الكبيرة في رد هذا الجميل للمشاركة فيما بعد، "فكم انتفع المشاركة بالعقد و ظرفه، و المخصص و المحكم و منهجها في اللغة، وابن رشد و فلسفته، و الموشحات و طرافتها ؛ مما لا يمكن أن يعد و لا يحصى (...). فلو لم تقم الحضارة الأندلسية بعلومها و فنونها و آدابها ثمانية قرون تعمل جاهدة في خدمة العلم و الأدب، لتغير تاريخ العالم الإسلامي"⁽⁴⁶⁾.

ومن هذا يتضح لنا أن الثقافة العربية -و خاصة الأدب العربي في المشرق و المغرب- قد قامت على عناصر أساسية، وهي " العنصر الديني و العنصر البشري و العنصر السياسي، و العنصر اللغوي، و إذا لا غرابة في تشابه وجود الثقافة و الأدب في المشرق و المغرب، ذلك أن المثل المحتذى قد كان واحدا هنا و هناك، فهو بمثابة الشجرة أصلها واحد فلا يمكن أن تختلف طبيعة ثمارها و إن اختلفت ألوانها"⁽⁴⁷⁾.

وما نستنتجه أن هذا التواصل الثقافي بين المغرب و المشرق أدى فيما بعد إلى بروز حركة نقدية كبيرة كان لها صدى على كافة أقطار المغرب العربي القديم.

الهوامش:

- (1) و من هؤلاء الباحثين الأستاذ أحمد أمين، و الدكتور إحسان عباس، والذي يقول: " وأصبحت القيروان ملتقى المهاجرين و الرحالة و الكتب المهاجرة من المشرق و الأندلس، و يكفي أن يرصد الدارس مصادر ابن رشيق في كتاب العمدة حتى يستكشف أن الثقافة المشرقية كانت سريعة الانتقال إلى إفريقيا " (ينظر ، كتابه تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص 439)
- (2) : محمد عابد الجابري : أستاذ الفلسفة في جامعة الرباط بالمغرب الأقصى
- (3) : من هؤلاء العلماء : ابن النباش البجائي ، المتوفى في أواخر القرن الخامس الهجري ، و عمر بن البدوخ أبو جعفر القلعي ، المتوفى بدمشق سنة (575هـ) و ابن أبي المليح الطيب ، (ينظر ، رابح بونار ، المغرب العربي تاريخه و ثقافته ، ص 278)
- (4) : هو الوليد محمد بن أحمد بن رشد و يسميه الفرنج " averroés " ولد بقرطبة من بيت غريق في المجد أصيل في القضاء، وقف نفسه على (شرح فلسفة أرسطو و تلخيص كتبه، و اهتم الأوروبيون بما كتبه فترجموه و تعلموه فكان أساسا لحكمتهم و نبراسا لنهضتهم (ينظر تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات ص 449) .
- (5) : ينظر: رابح بونار : المغرب العربي تاريخه و ثقافته : ص . 22.
- (6) : محي الدين صبحي : نظرية النقد العربي و تطورها إلى عصرنا : ص 66
- (7) : ابن النديم : الفهرست: ص 3
- (8) : الفارابي : هو أول من نظر إلى الفلسفة نظرة شاملة، و سار على منهجه من جاءوا بعده كابن سينا و ابن رشد (ينظر، هنري كريان : تاريخ الفلسفة الإسلامية - منشورات عويدات بيروت- ص/242).
- (9) : إخوان الصفا : جمعية سرية ظهرت في البصرة، و أساس منهجهم البحث للوصول إلى الحقيقة و الكمال و غايته تحقيق النفع العام (ينظر، أحمد أمين، ظهر الإسلام- دار الكتاب العربي بيروت- الطبعة الخامسة. 1969، ج2: ص/143).
- (10) : محمد غنيمي هلال : الأدب المقارن: ص/227.
- (11) : توابع : مفرد تابع أو تابعة أي ما يتبع الإنسان من الجن.
- (12) : الزوابع : جمع زوبعة، اسم شيطان أو اسم رئيس الجن.
- (13) : المرجع السابق: ص/229.
- (14) : إن رسالة الغفران تشبه "الكوميديا الإلهية" لدانتة، في نوع الرحلة وأقسامها و كثير من مواقفها

- (15) .د. محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن : ص/229.
- (16) : المرجع نفسه : ص/23.
- (17) : أحمد أمين : النقد الأدبي : ص/18.
- (18) (19) (20): د. محمود السمرة : القاضي الجرجاني : ص/54.
- (21): المرجع نفسه : ص/55.
- (22): د. إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب : ص/127.
- (23): ينظر : الشيخ ناصيف اليازجي : العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب : ص/401.
- (24): ديوان امرؤ القيس : من معلقته. "الا عم صباحا" ص/143.
- (25): د. محمود السمرة: القاضي الجرجاني ص/57. (نقلا عن كتاب صبح المنبي عن حيثة المتنبى، للشيخ يوسف البديعي ص/84,85).
- (26): د. محمود السمرة: القاضي الجرجاني ص/57.
- (27): محمد الطمار : الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج : ص/07
- (28): المصدر نفسه : ص/08.
- (29): د. عبد المالك مرتاض : الأدب الجزائري القديم : ص/38.
- (30) (31): المرجع نفسه: ص/39.
- (32): ينظر المقرئ: نفح الطيب : ج 1 : ص/459.
- (33): د. إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العربي: ص/440.
- (34): المرجع نفسه: ص/440.
- (35): د. بشير خلدون: الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي: ص/254.
- (36): من هؤلاء: عبد الكريم النهشلي، ابن رشيق القيرواني، و حازم القرطاجني
- (37): عبد السلام المسدي: مجلة العربي، العدد 441 (أغسطس 1995): ص/75
- (38)(39): جورج غريب : العرب في الأندلس : ص 28.
- (40): د. محمد رضوان الداية : تاريخ النقد الأدبي في الأندلس : ص/35.
- (41): المرجع نفسه : ص/36.
- (42) : ابن الأبار : الحلة السيرة، تحقق ، الدكتور حسين مؤنس. ج 1: ص/37.
- (43): د. محمد رضوان الداية: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس: ص/37.
- (44): أحمد أمين: ظهر الإسلام. ج 3: ص/307.
- (45): المرجع نفسه : ج 3: ص/310.

الشخصية الروائية وعلاقتها بالعناصر

السردية الأخرى في رواية

"مرايا متشظية" لـ "عبد الملك مرتاض"

أ. سعيد خليفي

المركز الجامعي بغيليزان/الجزائر.

لقد كانت القراءة الجادة المعاصرة كفيلة بالكشف عن حقيقة سردية هامة، وهي أنّ الشخصية الروائية لا يمكن أن توجد منعزلة عن باقي العناصر السردية، وإنما تدخل في علاقات متعددة مع المكونات الحكائية الأخرى، فالشخصيات عموماً ترفض أيّ تصوّر لا يربطها بالمكان والزمن والحدث واللغة، فكلّ طرح لمسألة الشخصية بمعزل عن هذه العناصر هو ضربٌ من العبثية، لا يمكن قبوله، ذلك أنّه لا وجود للحدث بمعزل عن الشخصية، والشخصية لا يمكن أن تتحرّك وتتصارع خارج إطار الزمن والمكان، كما أنّه ليس للمكان أية أهمية إذا لم تُعمره الشخصيات وتسكنه، وكذلك الشأن بالنسبة للزمن، أمّا اللغة فإنّ أهميتها كبيرة سواءً في رسم ملامح الشخصية أو في حركيتها أو في صراعها، ذلك أنّ « اللغة وحدها تستحيل إلى سمات خرساء، فجّة، لا تكاد تحمل شيئاً من الحياة والجمال. والحدث وحده - وفي غياب وجود الشخصية - يستحيل أن يوجد في معزل عنها، لأنّ هذه الشخصية هي التي توجد وتنهض به نهوضاً عجباً، والحيز يخمد ويخرس إذا لم تسكنه هذه الكائنات الورقية العجيبة : الشخصيات. »¹ ولذلك فثمة علاقة وطيدة بين هذه العناصر السردية والشخصية.

فما طبيعة هذه العلاقة في رواية "مرايا متشظية" لـ "عبد الملك مرتاض" ؟ وكيف نشأت ؟ وهل هي متساوية مع كل العناصر ؟ أم هناك تفاوت واختلاف من